مادة:

التاريخ الحضري

مجلة عالم الفكر
المجلد التاسع ، العدد الأول - ١٩٧٨م

عبد العال عبد المنعم الشامى *

جغرافية المدن عند العرب

توصف الجغرافية العربية بأنها – فى معظمها – دراسات وصفية تسير وفقا للمنهج الاقليمى ، ولكن هذا لا يعنى أن الاهتمام بالظاهرات الجغرافية داخل الأقاليم يأتى على قدم المساواة ، اذ تحظى المدن – كأهم ظاهرات الاقليم – بعناية كبيرة ، بل لقد بلغ من عناية العرب بدراسة المدن أن اصبح من المقرر القول بأن **الجغرافية العربية جغرافية مدن بقدر ماهى جغرافية اقليمية .**

ويمكن أن نتبين مدى عناية العرب بجغرافية المدن من خلال استعراض الكتابات الجغرافية وبيان نصيب المدن منها ، وكذلك عرض الكتابات المنفردة والمفصلة الخاصة بالمدن، وهذا ما سنعرض له في هذا المقال حيث سنتناول الدراسة الخارجية للمدن من خلال كتب الزيوج ، والجداول الجغرافية ، وكتب المسالك والممالك ، والمعاجم الجغرافية ،

---

* مدرس بقسم الجغرافيا بكلية الآداب – جامعة القاهرة .

والموسوعات ، وكتب الجغرافية الادارية واخيرا الخرائط العربية ، **والدراسة الداخلية للمدن** من خلال كتب الخطط ، والرحلات الجغرافية، وتواريخ المدن ، وكتب الحضارة والعمران ، مع العناية بما سطره ابن خلدون فى هذا المجال .

دراسة المدن من الخارج

تتمثل دراسة المدن كظاهرة جغرافية واضحة في أقاليمها من استعراض التصانيف الجغرافية وتحديد نصيب المدن فيها بوجه عام ، مع التمثيل بمدن الدلتا حتى يصبح مثل هذا العرض داخلا ضمن التعريف بمصادر الدراسة وتحليلها .

١ ـ كتب الزيوج والجداول الجغرافية :

اذا كانت هذه الكتابات عبارة عن جداول مقسمة وفقا للتقسيم السباعى للاقاليم فانه فى داخل كل اقليم يأتى ذكر أهم الظاهرات الجغرافية فيه ومنها المدن ، حيث تحدد أطوالها وعروضها كما فى صورة الارض **للخوارزمي** الذى اقتصر على المدن الساحلية للدلتا لاعتماده على خريطة بطليموس التى نقلها الى العربية وحقق ماورد فيها .

اما **البيرونى** فقد سار بهذا الفن خطوة جديدة فحقق أطوال المدن وعروضها بما يقترب كثيرا من الحقيقة ، ثم اهتم بتبعية المدن للممالك والنواحى وذكر صفات المدن وما تشتهر به.(١)

ويأتى بعد البيرونى من يقتفى اثره ، ويعتمد عليه ، فيتوج هذا النمط من التأليف بجداول جغرافية معتمدا على الكتابات السابقة، وخاصة ماكتبه **ابن سعيد** ، ومن ثم فقد قسم « **ابو الفدا** » « تقويم البلدان » الى جداول شملت العالم الاسلامى ، وأدخل فى هذه الجداول معلومات عن جغرافية المدن بذكر الاسم وضبطه وتحديد الاقليم الحقيقى (من الاقاليم السبعة) والاقليم العرفى (الواقعة فيه المدينة سياسيا اواداريا) ثم ذكر خطوط الطول والعرض ، واخيرا الاوصاف العامة للمدينة التى تتضمن المعلومات التاريخية والجغرافية . وقد أحصى فى مصر ٢٨ مدينة ، فضلا عما كتب من مقدمات عن مصر تسبق الجداول .

٢ ـ كتب المسالك والممالك :

ـ تمثل هذه الكتابات صلب الجغرافية العربية ، ومنذ بداية الكتابة وفقا لهذا النمط من التأليف الجغرافى نجد الاهتمام بالمدن على نحو ما هو واضح عند **اليعقوبى وابن رسته** ، ولقد بلغ من اهتمام الجغرافيين العرب بالمدن فى دراستهم ان عاب **المقدسى** على سابقيه التقصير في هذا الجانب ، وعد اهتمامه بالمدن من أهم ما ميز كتاباته الجغرافية فيقول عن **الجيهانى** انه

---

(١) كمثال تنيس : فى الاقليم الثالث ـ جزيرة فى بحيرة المصب (مصب النيل) . يعمل فيها الثياب البيض ، واما من حيث موقعها الجغرافى فهى من الجزائر ..

لم يصف المدن ولا أستوعب ذكرها بل غفل عـن ذلك ، وأما **البلخى** فانه ترك الكثير من أمهـات المدن فلم يذكرها ، فى حين انتقد **ابـن الفقيـه** باقتصاره على ذكر المدن العظمى .

ـ **اما الاصطخرى** عنـد دراستـه لكـل اقليم ، فانه يولى اهتماما بالمدن الكبرى وأهميتها ، بل لعل المدن هى أكثر ما يعنى به الاصطخرى ، فهو يذكر المدينة وموقعها وما فيهـا وآثارهـا والطرق التي تربطها بما حولها ، ويوقع هـذه المدن على خرائطه .

ـ **وابن حوقـل** الذى استصفـى كتـاب الاصطخرى يضيف عليه زيادات كبيرة هامـة بفضل زياراته على نحو ما فصـل القـول عـن مدن الدلتا وقراها وما ضمنه خريطته من تفاصيل لم تذكر عند غيره ، بل استغنى بها عن كتابـة المادة العلمية في كتابه .

ـ **والمقدسى** الذى انتقد سابقيه يفاخـر بأنه قد طول كتابه بوصف المدن بما كتبـه عـن مشاهدة ورؤية خلال رحلاته ، كما كانت لـه خرائطه التى وقع عليها المدن .

ـ **والمهلبى** وان كان كتابه « العزيزى » لم يصل الينا ، فان النقول الواردة عند « ياقوت » « وأبو الفدا » عنه تدل على مدى اهتمامه بالمدن المصرية والمسافات بينها مع الوصف التفصيلى للمدن .

ـ **والبكرى** ـ الجغرافى الاندلسى ـ يهتم بالمدن فيذكر اسواقها وحماماتهـا ومساجدهـا وصناعاتها ، وبالنسبة للمدن التاريخية يهتـم بالبرابى والآثار . وعلى الرغم من عدم زيارتـه لمصر الا أنه قد نقل عن الرحالة والحجاج احوال مدن الدلتا بتفصيل لا يتوافر عند غيره أحيانا .

ـ **وأما الادريسى** الذى اعتمد على التقسيم السباعى للعالم فقد اهتم فى داخل كل اقليـم بالمدن والحصون ، وكتب عنها بمقدار ما جمع من مادة علمية وما شاهده وما نقل اليه ممـن أرسلهم الى مختلف النواحى والممالك ، ثم صور ذلك كله على الكـرة المجسمـة ثـم خريطتـه المشهورة .

ـ ثم يأتي « **أبو سعيد المغربي** » فى « **بسط الارض** » بما يمكن وصفه بأنه جـداول للمـدن وغيرها من الاعلام الجغرافية محددة الاطـوال والعروض بدقة . ويهتم فى مصر بالمدن الحادثة (المنصورة) والمتدهورة (الفرما) .

٣ ـ المعاجم الجغرافية :

الكثرة الغالبة من الاعلام الجغرافية الواردة فى المعاجم الجغرافية خاصة بالعمران . وخير مثال ماكتبه **ياقوت الحموى** عن رؤية ومشاهدة ، وماجمعه من مصادر سابقة لم تصل الينا . وقد اهتم بضبط الاسماء وبيان اشتقاقها ومعناهـا وتحديد اقليمها ويذكر المدن الحادثة ، وتاريخ فتح المدن فى الاسلام وما اشتهرت به . وقـد جمع في كتابه « المشترك » بين عمله فى المعجـم والاهتمام بدلالات الاسماء المشتركة بين المدن .

٤ ـ الموسوعات (الجمهرات) :

هذا الطراز المصرى قد حذق فى وضعه علماء وعمال دولة المماليك فى القرن الثامن الهجرى ، وكان للجغرافية مكانة مرموقة فيها ،وخاصة المدن واحوالها والتقسيمات الادارية وتطورها . وقد بدأت سلسلة الجمهرات بماكتبه **الوطواط الوراق** (٧١٨ هـ) **فالنورى** ، **ثم ابن فضل الله العمرى** ، واخيرا **القلقشندى** .وقد أضاف كل منهم عن المدن المصرية معلومات تمثل عصره فضلا عن دراسات تاريخيه متطورةعن المدن .

٥ ـ كتب الجغرافية الادارية :

وهى وان كانت تجعل التقسيم الاداريوتطوره عبر التاريخ أساسها ـ وهذا جانب له اهمية كبيرة في دراسة المدن وخاصة الادارية ـالا انها تتضمن معلومات هامة عن المدن عامة ومن امثلة هذه الكتابات المصرية «قوانين الدواوين»((**لابن مماتى**)) ، « ولمع القوانين » **للنابلسى** ، والتعريف ((**لابن فضل الله العمرى** ، وزبدةكشف الممالك » **للظاهرى** ، والتحفة السنية ((**لابن الجيعان**)) .

٦ ـ الخرائط العربية والمدن :

اهتم العرب بتوقيع المدن على الخرائط ،واستخدموا ـ احيانا ـ رموزا تدل على سمات او وظائفها واحجام كتلتها السكنية ، على نحوما هو مشاهد فى خرائط مصر للاصطخرى والمقدسى والادريسى ،وتعتبر خريطة ابن حوقلللدلتا اكثر الخرائط العربية شمولا للمدن والبلدان فى عصره ، حتى لقد استغنى بهذهالخريطة عن ذكر العديد من التفاصيل عن هذه المدن والقرى فى كتابه .

والى جانب اهتمام العرب بتوقيع المدنتضمنت كتاباتهم الجغرافية خرائط تفصيلية للمدن ـ اذا جازت هذه التسمية ـ وتبرز هذهالصور أحياء المدن وارياضها وما هو فى ظاهرها من ظاهرات طبيعية وبشرية كالجبال والقرى ،ويمكن الرجوعالى معجم ياقوت وكتاب القزوينى (٢) وتاريخ المستبصر لابن المجاور (٣) حيثتضمنت هذه الكتب خرائط لامهات المدن العربية والاسلامية وغيرها .

هذا وقد عرفت مصر مجسمات المدنعلى نحو ما أقام المعلم حسن ابن الصياد المهندس حينخط للسلطان الغورى سنة ٩١٦هـ بالجبسفى الارض مدينة الاسكندرية وعدد ابراجها وابوابها وهيئة صورها والمنارة التى كانت بهاوقدر عرضها وطولها ، ولعل ذلك كان لاغراض عسكرية حيث يذكر ابن اياس (٤) ان ذلك تمبعد عبث الفرنج بالسواحل المصرية ، مما دفع

---

(٢) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٣٤ ، ٦٠٤٤ خريطة مدينة قزوين ومدينة القسطنطينة .

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعضالحجاز ... تحقيق وضبط اوسكر لوفغرين . ليدن ١٩٥١، ١٩٥٤ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ : ص ١٩٦ .

السلطان للتفكير فى الذهاب الى ثغر الاسكندرية بنفسه ليتفقده فحال « أتابك المعسكر » دون ذلك وذهب نيابة عنه ، وفى أعقاب ذلك نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو المطربة لمشاهدة هذا الجسم .

دراسة المدن من الداخل

بالاضافة الى الكتابات الجغرافية السابقة فان هناك كتابات جغرافية كثيرة تركز على تفاصيل المدن من الداخل ، مثل كتب الخطط والرحلات الجغرافية وما افرد للمدن من كتابات مستقلة ، وما انفرد به ابن خلدون من معالجة للمدن كظاهرات جغرافية .

١ ـ الخطط : كتب الوصف الطبوغرافي

هذا الفن من فنون التاريخ للمدن قد ابتدعه وسما به المصريون كفن مستقل بذاته فكان لهم الفضل في ابتكاره اولا ثم تقدمه وازدهاره ثانيا ، حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبتا حافلا فى تراثنا التاريخي (٥)

وقد تتابعت الكتابة عن الخطط في مصر منذ النصف الثانى من القرن الثالث بما كتبه **ابن عبد الحكم** ثم **الكندى وابن زولاق والمسبحى** ثم **القضاعى والنحوى والجوانى** ثم **أبو صالح الارمنى وابن عبدالظاهر وابن المتوج وابن دقماق والاوحدى**، واخير يأتى **المقريزى** فى القرن التاسع الهجرى ليمثل قمة هذا الفن من حيث الشمول والاستيعاب والحصر مع الدراسة التطورية على مدى القرون السابقة حتى عصره ، وقد جمع فى دراسته للمدن بين المندرسة والقائمة والحادثة .

٢ ـ الرحلات الجغرافية :

كانت فى معظمها صورا لحياة المدن كما رآها الرحالة ، وهى تضيف تفصيلات قيمة عن المدن حيث يستلفت نظر الرحالة ما يخالف ما ألفه في بلاده ، ومن ثم يسجل مالا يسجله الجغرافي المقيم في هذه البلاد . وبالنسبة لمدن الدلتا نجد عند **ناصر خسرو** تفصيلات عن مدينة تنيس كما رآها فى منتصف القرن الخامس الهجرى . واما **ابن جبير** الذى اقام فى مصر نحو اربعة اشهر في الربع الاخير من القرن السادس فقد استوفى عند ذكر المدن الاشارة الى مرافقها من اسوار وقلاع ومساجد واسواق وشوارع ومنازل وابواب وما فى ظواهرها من اريافى وضواحى . (٦)

وقد زار **عبد اللطيف البغدادى** مصر ـ فى أواخر القرن السادس ـ ابان حدوث اشهر المجاعات التى مرت بمصر فحدد آثارها على المدن وسكانها ، ثم افرد لابنية مصر فصلا لقيمته . وأما رحلة **العبدرى** سنة ٦٨٨ هـ فقد عالجت المظهر الحضارى لبعض المدن بالدلتا . وأخيرا

---

(٥) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ٣ / ٥ .

(٦) حسين نصار : رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ بمجلة تراث الانسانية المجلد الاول .

نجد **ابن بطوطة** فى « تحفة النظار » حين يصل الى مصر ويتجول فى مدن الدلتا يصور لنا دمياط الجديدة ، ويعطى تفاصيل دقيقة عنها .

٣ ـ تواريخ المدن : (٧)

يرى **جويدى** ان اساليب الابتداء في علم الجغرافيا عند العرب واليونان متشابهة ، فان أول ما اشتغل به علماء اليونان من هذا العلم اخبار المدن كأثينا فجعلوا لكل مدينة من مدنهم التى ملكوها وحلوا فيها تاريخا ، وهم في هذا كالامة العربية حيث نجد اهتماما كبيرا بالمدن .(٨)

هذا وقد ألف العرب كتبا خاصة بالكثير من المدن ـ غير أننا لا نعرف شيئا عن أكثرها ـ ويمكن القول « بأنه قلما تجد مدينة من المدن العربية دون ان يؤلف لها تاريخ خاص بها ،وهذا النوع من التاريخ يمكن ان ندخله ضمن الجغرافيا التاريخية . (٩)

ومن هذه التواريخ ماهو خاص بالمدن الدينية كمكة والمدينة ، ومنها ما أفرد لعواصم الخلافة الاسلامية كدمشق وبغداد ، ومنها ما اختص بالامصار العظمى فى الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط بغدادوسامراء ، وفوق هذا نجد تاريخا لامهات المدن الاسلامية فى المشرق كبخارى واصفهان ، ولولامثل هذه الكتابات لما وصل الينا علم عن حياة المدن فى وسط آسيا ، ليس فقط فى العصر الاسلامي ، بل وفى زمن الساسانيين . (١٠)

أما نصيب مدن مصر من تواريخ المدن فنجده عند **ابن دقماق** الذى انتصر للفسطاط كواسطة لعقد الامصار ، واما **المقريزى** فقد خص القاهرة المعزية بمعظم كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وهناك تاريخ الاسكندرية وتاريخ دمياط وتاريخ الفيوم وبلاده **للنابلسي** ، وانيس الجليس فى اخبار تنيس **لابن بسام التنيسي** ، والطالع السعيد **للادفوى** عن مدن الصعيد الاعلى .

٤ ـ كتب الحضارة والعمران :

تبحث هذه الكتب فى مدينة العرب وحضارة الاسلام ، ويأتى فى مقدمة هذه الكتابات في مجال دراسة المدينة ابن خلدون بما تضمنته من تفاصيل عن خصائص مواقع ومواضع المدن وعوامل نمو المدن او تدهورها ، وما وضعه من أسس لتصنيف المدن .

• • •

---

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تواريخ المدن انظر مقدمة ذيل تاريخ مدينة السلام بن الدثينى . بغداد ١٩٧٤ .

(٨) جويدى : محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب ص ٥ . مجلة الجامعة المصرية ١٩٠٨ / ١٩٠٩ .

(٩) ناجى معروف : عروبة المدن الاسلامية ص / ٩ .الطبعة الاولى . بغداد ١٩٦٤ .

(١٠) أحمد زكى الوليدى : الاسلام والعلوم الجغرافية ص ٥٦٥ مجلة المعرفة . المجلد الثالث .

دراسات ابن خلدون عن المدن :

أولا ـ هيئة المكان أو خصائص الموقع والموضع ونشأة المدن :

ـ اذا كانت الخطوة الأولى فى دراسة أى مدينة هى تحديد خصائص المكان (الموقع والموضع) بكل دقة ، فان ابن خلدون قد اهتم بذلك واطلق على مانسميه بخصائص المكان أو هيئة الارض ، **الوضع الطبيعى للمدن (١١)** سواء في ذلك السمات الطبيعية او البشرية . وقد خصص ابن خلدون لذلك فصلا عنوانه « ماتجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث أذا غفل عن تلك المراعاة » ، ولما كانت المدن للقرار والمأوى ، وجب ان يراعى فيها دفع المضارب بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها (١٢) ثم حدد تحت هذا العنوان من خصائص المكان ما يلى :

الحماية الطبيعية بأن يكون موضع المدينة فى متمنع من الامكنة ، اما على هضبة متوعرة فى الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة ، فيصعب منالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها . (١٣)

الحماية البشرية المكملة للحماية الطبيعية وتتمثل فى أن يدار على منازل المدينة جميعا سياج الأسوار (١٤) الذى يدفع العدوان الخارجى عند الغفلة او الاغارة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا ، او يدفعه جنود الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة . (١٥)

وبالاضافة الى أهمية الاسوار لتحقيق الحماية للمدن يرى ابن خلدون ان المدن الساحلية تحتاج ـ اذا لم تكن فى موقع جبلى ـ الى ظهير بشرى موفور العدد يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو ، والسبب فى ذلك ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر إبي الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها من الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها ، لما يأمن من عدم وجود الصريخ لها ،

---

(١١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٥ ، ٩٧٦ .

(١٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(١٣) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٤) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٩٢ ، وقد علل ابن خلدون قيام الاسوار وأهميتها بقوله : والسبب فى ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن أحوالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم .. انظر ص ٥٨٨ .

وان الحضر المتعودين للدعة قد صـاروا عيـالاوخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه الاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب . (١٦)

مواد الميـاه : ادخلهـا ابن خلدون ضمـن جلب المنافع للمدن ، وذلك بأن تكون المدينة على نهر أوبازائها عيون عذبة ثرة ، فان وجود الماءقريبا من المدينة يسهل على السكان وفرة الماء وهى ضرورية ، فيكون لهم فى وجـوده مرفقـةعظيمة عامة . (١٧)

الظهير : (اقليم المدينة) قد عدد فيـه ابن خلدون عدة مظاهر طبيعية :

(أ) النطاق الزراعـى فان الـزورع هـىالاقوات ، فاذا كانت مزارع المدينة بالقرب منها كان ذلك أسهل إي اتخاذه وأقرب في تحصيله .

(ب) توافر المراعى : ما يراعى من المرافقفى المدن طيب المراعى لسائمتهماذ أن صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرعوالركوب ، ولا بد لها من المرعى ، فاذا كان قريبا كان ذلك أرفق بحالهم ، لما يعانون من المشقـةفى بعـده .

(جـ) توافر النباتات الطبيعيـة : ومـن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب ممـا تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطـلاءوالطبخ . والخشب أيضا ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب منضروریاتهم . (١٨)

الموقـع : أشـار ابن خلدون الـى أهميةالموقع الساحلى واعتبره مما يراعى عند قيـام المدن ، ذلك أن قربها من البحر يسهل حاجاتهمالقاصية من البلاد النائيـة ، وان كانت هـذه الميزة ـ كمنفعـة للمدينـة ـ ليـست بمثابـةالمميزات السابقة كما يقول . (١٩)

المناخ : وهو مما يراعـى حماية المـدن ،ذلك ان طيب الهواء شرط للسلامة من الامراض ، والمدن التي لم يراع فيها طيـب الهـواء كثيرةفى الغالب ، وقد اشتهرت بذلك مدينة قابس بالمغرب ، أما الرياح فقد اهتم بها في المدن لانهـاتخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات ، فى حين ان الظعن بالبادية يجعل الهواء طيباً . (٢٠)

---

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٥ / ١٩٧٦ .وتصديقا لقوله عن الاسكندرية تعرضها سنة ٨٣٢ هـ الى هجوم خمسة مراكب للفرنج ، ومبادرة عبد القادر بن أبىالفرج الاستادار اتى جميع عرب البحيرة وادخالهمالاسكندرية حتى قويت بهم نفوس أهل الثغر ونكص الفرنج على اعقابهمبعد أن جرح منهم جماعة .. أنظر ابن حجر العسقلانى : أبناء الغمر جـ ٣ : ص ٤٢٠ وكانت الاسكندرية قـداستبيحت من قبل على يد القبارصة سنة ٧٦٧ هـ بل وتعرضت لهجمات العربان عند فرار أهلها امام الفرنج .

(١٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ .

(١٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ / ٩٦٥ .

(١٩) ابن خلدون : نفس المرجع السابق ص ١٩٧٥ .

(٢٠) ابن خلدون : المرجع السابق . ص ٩٧٥ ،٩٩٢ .

الظروف الصحيـة : ذلـك ان مجـاورةالمدن للمياه الفاسدة ، او المناقـع المتعفنـة او المروج الخبيثة ممـا يؤدى الى سرعـة التعفـنوسرعة حدوث المرض للحيـوان الكائن فيهـا لا محالة . (٢١)

وبعد أن عالج ابن خلدون **هيئـة المكـان**أشار الى تفـاوت المدن بمـدى توافـر هـذه الخصائص أو عدمها ، فانه بالتفاوت في هـذهتتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعى .

وقد انتقل ابن خلـدون بعد ذلـك الـىالجانب التطبيقى وما يحدث عندما يكون الوضع للمدن غافلا عن حسن الاختيار الطبيعـى بمـااشترط فى المكان من خصائص طبيعية وبشرية .

ويضرب المثل بالعربعندما اختطوا الكوفةوالبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعى ابلهم ، ومايقرب من القفر ومسالـكالظعن ، فكانت بعيدة عنالوضع الطبيعى للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم ، فقدكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيضمرها الناس . فـلأول وهلـةمن انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانـت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لـمتكن . (٢٢)

وعلى الرغم من وضوح التعليل السابقفان ابن خلدون لم يقطع به كسبـب أوحـد فى تفسير ظاهرة أن المبانى التيكانت تختطها العربيسرع اليها الخراب الا فى الاقل ، بـل وضـع أسبابا أخرى منها :

ـ شأن البداوة والبعد عن الصنائع عندالعرب ، ومن ثم فـلا تكون المبانـى وثيقـة فى تشييدها . (٢٣)

ـ وأيضا فـان العرب كانـوا أجانبا عـنالممالك التى استولوا عليها قبل الاسلام ، ولمـا تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفى رسومالحضارة ، مع أنهم استفنوا بما وجـدوا مـن مبانى غيرهم أحيانا .

ـ وأيضا فكان الدين اول الأمر مانعا منالمغالاة فى البنيان والاسراف فيه . (٢٤)

ـ وأيضا فقد يكون الواضع للمدن غافلاعن حسن الاختيار الطبيعى لأنه انما يراعى فى المدن التي اختطها الاهم عنده من مراعى الابـلوما يصلح لها من الشجر والماء والملـح ، ولـم

---

(٢١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٢٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩٢ .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

(٢٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف وهذا ما حدث فى القيروان والكوفة والبصرة ولهذا خربت لعدم مراعاة الامور الطبيعية . (٢٥)

ومن الواضح ان ابن خلدون انما يعالج هنا نمطا واحدا من أنماط المدن العربية وهى المدن الحربية التى تقوم لسد متطلبات الوظيفة ،ومثل هذه المدن فى الغالب هامشية وليس لها ظهير طبيعى أو بشرى يكفل لها الحياة الطبيعية للمدن حين تزول أسباب النشأة الاولى .

ثانيا ـ النمو : عوامل نمو المدن وازدهارها وعوامل تدهورها وخرابها :

يقرر ابن خلدون ان اختطاط المنازل من منازع الحضارة (٢٦) ، وذلك ان الحضارة انما هى تفنن فى الترف واحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمبانى والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، (٢٧) ويلاحظ ان المبانى القائمة فى المدن لا تكون كلها خاصة بالافراد ، بل ان قسما منها يكون من المرافق العامة التى يشترك فيها ويستفيد منها جميع السكان .

وطبيعى ان هذه المرافق تحتاج الى رعاية الدولة . ولذلك يقول ابن خلدون « لا بد فى تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك » . (٢٨)

هذا ويربط ابن خلدون ـ عند عرضه لاطوار الدولة المختلفة ـ بين رفاهية الدولة حين تصل الى طور الفراغ والدعة وبين تحصيلها بثمرات الملك ، ومن ذلك تشييد المبانى الحافلة والمصانع (المبانى) العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة ، وذلك بفضل ما تحصله من أموال عن طريق ضبط الدخل العام . (٢٩)

ومن ثم يقرر ابن خلدون ان مبانى الدولة تكون على نسبة قوة الدولة فى أصلها . (٣٠) وهو فى هذا يضيف عاملا هاما فى ازدهار العمران الحضرى نجد مصداقا له فيما شهدته مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون .

ولا يقتصر دور الدولة على زيادة معدل نمو وازدهار المدن القائمة ، بل تستحدث مدنا جديدة وخاصة زمن الفتوحات الكبيرة لها ،فانها تكون فى حاجة الى استحداث بعض المدن والثغور لايواء حامياتها وحماية حدودها الجديدة من غارات الدول المجاورة لها (٣١)

---

(٢٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٥ .

(٢٦) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٥ .

(٢٧) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٥٨ .

(٢٨) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

(٢٩) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٤ .

(٣٠) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٦ .

(٣١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٨ .